نحو مدينة النجف توجه باص (الكوستر) محملا بأكثر من عشرين قلباً مكسوراً وحزيناً نحو النجف حيث يقبع في ترابها البعيد أغلب الأحبة ومن يعيشون تحت شغاف القلوب، انهم موتى الحروب والحصار والارهاب ومنايا الله مجتمعة التي وجدت في ارض السواد رقابا قد اينعت وحان قطافها، يسكن الالم ويعتمر قلوب العراقيين من ازل بعيد، التاريخ لا يجد فسحة من الزمن ليكتب عن فرح اجتاح العراقيين ولا يجد فسحة لكتابة اعياد لا تغلّف بالأسى والدموع، في اليوم الاول من كل اعياد الله (يعايد) العراقيون احبتهم الغائبين الحاضرين في قلوبهم، اذا ما قادتك قدماك لتشق ارض المقبرة صباح العيد ذهابا او ايابا فلن تفلح ان تحبس دموعك امام أنين الامهات وحزنهن الأبدي، لن تقوى على اتمام مسيرك امام عتابهن لأبنائهن ولوعتهن، مقبرة النجف كأنها تتشح بالابيض صباحات الاعياد وكأن الموتى يبعثون من جديد للقاء احبتهم، امرأة كبيرة كانت حاضرة تقول: اشعر بأنفاسهم ورائحتهم هم قريبون جدا منا اكاد ألمسهم.

بعد الصوم.. إفطار على موائد الألم

عيد العراقيين زيارة مقابر الأحبة واستذكارهم بالدموع

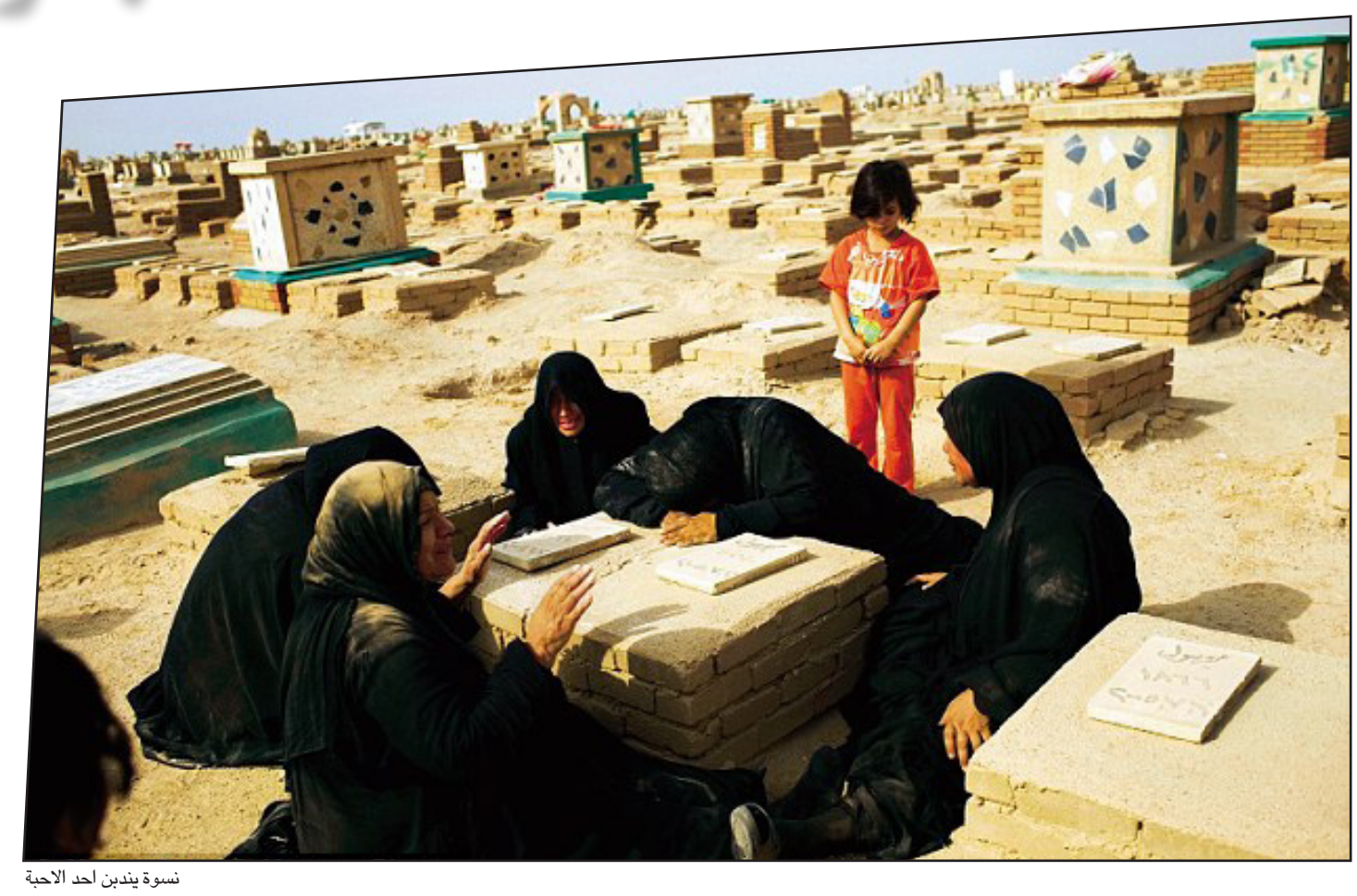

نسوة يندبن احد الاحبة

■ كتب/ فرات ابراهيم

من المعيب جداً ألا يأتوا إلى أحبتهم الذين افتقدوا مرحهم ومعاشرتهم بسبب الموت

غياب الخدمات وفوضى الطريق ترافق الزائرين كل عام

المقبرة الصماء كأنها تطرق رأسها أمام عويل الأمهات ونواحهن الباكي

لا طعم للعيد من دون زيارة قبر ولدي (محمد) ليرتاح قلبي وقلب أمه

كان يقول لنا الأجداد روح الميت الحائرة تشعر بالطمأنينة عندما يزورها مَن يُحب

مقبرة النجف

تمتد المقبرة على رقعة واسعة من أرض النجف، ويعود تاريخ نشوئها إلى نحو الف عام وهي اكبر مقبرة إسلامية حيث تقدر مساحتها بأكثر من عشرة كيلومترات مربعة، وتتميز بتلاصق قبورها.

واتسعت المقبرة خلال العقود القليلة الماضية بشكل كبير لزيادة عدد ضحايا الحروب المتكررة التي شنها النظام العراقي السابق وما تلاها من أعمال عنف في عموم البلاد.

زوار المقبرة خلال تواجدهم فيها الذي يستمر لساعات عدة ويتخلله قراءة آيات من القرآن الكريم ووضع الزهور ورش الأرض المحيطة بالقبر بالماء.

وتستمد المقبرة قدسيتها من وجود مرقد الإمام علي بن أبي طالب (ع) بالقرب منها، وهو ما يبعث لدى ذوي المتوفى شعورا بالاطمئنان والأمان.

وقد اعتاد المسلمون الشيعة على دفن أمواتهم في هذه المقبرة تبركاً بوجود مرقد الإمام علي (ع) في هذه المدينة المقدسة.

فجر العيد

مع بدايات فجر اليوم الاول للعيد وبعد انقضاء صلاة العيد، فان الكثير من المواطنين رجالا ونساءً استهلال فرحة العيد بزيارة المقابر في البحث بين جنباتها عن شواهد قبور احبة لهم كان الموت قد غيّب وجودهم من الحياة إلا انه لم ينسهم ذكراهم من قلوبهم ونفوسهم والتي ما زالت ماثلة في نفوسهم راسمة آثارها في وجوههم حيث اختلطت الفرحة بحلول العيد بمشاعر الحزن على فراق الأحبة الذين مضوا الى دار الحق.

البعض راح يبحث عن قبر والده وآخر عن والدته وآخرون عن اخ او قريب او اعزاء كانوا قد فارقوا هذه الدنيا معبرين عن الحب لهم بزيارتهم في مثواهم الاخير فالموت وان غيّب الاجساد إلا انه لم يمح وجودهم في نفوس الاحياء حيث لا تزال الذكريات حية شاخصة في نفوسهم بحبهم لهم ظاهرة في التعابير الجياشة والدموع التي سكبت على شواهد قبورهم، حيث انخرط البعض متضرعاً ومتوسلا الى الله ان يغفر ويتجاوزعن خطايا موتاه وان يزكيهم ويجزيهم خير الجزاء ويحسن مثواهم الاخير داعيا الله ان يفسح لهم مكاناً في جناته في عليين بالدعاء تارة وبقراءة القرآن الكريم تارة اخرى أملا ان يتقبل منهم.

فيما راح البعض بعد الدعاء وقراءة القرآن الكريم لا يلوي على شيء سوى الجلوس منكبا على شاهد قبر قريب له مسترجعا ومتأملا في نفسه في لحظات من الصمت ذكريات مرت به جمعتهما مع الميت قبل ان يختاره الله الى جواره.

أعياد وإرهاب

ومع إطلالة نهار العيد في النجف، تمتلىء شوارع النجف وخصوصاً المدينة القديمة بحشود الزائرين القادمين من مختلف محافظات العراق للاحتفال بالعيد في هذه المدينة المقدسة.

ويشهد الصحن الحيدري في النجف دخول عشرات الآلاف من الزوار إلى مرقد الإمام علي بن أبي طالب (ع) لأداء مراسيم الزيارة، حيث تمر تلك الحشود عبر مفارز التفتيش قبل دخولهم إلى الضريح المقدس.

وبالرغم من سوء الأوضاع الأمنية في مختلف مناطق العراق، وتعرض الزوار في كثير من الأحيان إلى عمليات إرهابية أو تهديدهم بها، إلا إن ذلك لم يمنع مئات الآلاف من الحضور إلى النجف في كل عام، حتى تتجاوز أعداد الزائرين في العيد المليون أو أكثر. تقول المواطنة سهام حسن: انها جاءت هذا العيد الى المقبرة لزيارة والدها وتضيف: ان المقبرة تعاني نقص التنظيم والزحام وعدم اهتمام الدولة بها على الرغم من ان غالبية هؤلاء الشباب هم ضحايا الارهاب او شهداء ذهبوا ضحية لهذا الوطن، وتؤكد بان الاهمال وعدم مراعاة حقوق الموتى او الاحياء في هذا الجانب واضحة، فهي تقول بانها ومنذ الساعة الرابعة صباحا تبحث عن قبر والدها فلا تجده لان المحافظة وضعت حواجز كونكريتية وسيّجت المقبرة ولم تنظم حركة السير اليها من خلال سيارات تعدها لغرض نقل الزوار الى اضرحة محبيهم وان الامر فوضى، بينما يؤكد (ابوعادل) بأن الأتربة وعدم وجود تبليط للشوارع يسهل حركة الزائرين جعل زيارة المقبرة شيئا صعبا، وقال: ان الجهات المعنية يبدو فعلا غير معنية بهذا الكم الهائل من الزوار على الرغم من ان غالبية هؤلاء الزوار يقدمون الى خزينة المحافظة كل عام مبالغ خيالية من خلال تجوالهم في المحافظة والسكن في فنادقها او تناول الطعام في مطاعمها، فيما اكد حسن عبد الله ان المحافظة او الدولة وضعت في حسابها ان الاعمار من عدمه لن يجدي نفعا لانهم على يقين بان المواطن لن يتخلى عن زيارة موتاه وبالتالي فهم قد ضمنوا كل هذه الاعداد من الزائرين ان تأتي حتى مع عدم وجود خدمات.

شجن الجنوب

سعيد السيد حسين الذي يعمل دفاناً في مقبرة السلام في النجف يقول: إن المقبرة تشهد حركة دؤوبة في أيام العيد، لاسيما أهالي الشهداء من الشباب، فهم يحرصون على الحضور من اوقات مبكرة من اليوم الاول للعيد لانهم يظنون ان الموتى ينتظروهم هذا اليوم ومن المعيب جدا ان لا يأتوا الى احبتهم الذين افتقدوا مرحهم ومعاشرتهم بسبب الموت.

الحاجة ام سعد تأن امام قبر ابنها الشاب الذي اختطفته يد الارهاب، كأنها تحاكيه ويحاكيها حاولت جاهدا ان لا أقطع خلوتها كنت استمع اليها من قريب جدا، كانت تشكي اليه اخوته وكيف ان واحدا منهم اتعب قلبها بسبب تهوره وتصرفاته، كانت تتحدث مع ابنها الميت وكأنه يسمعها بالفعل، تارة تتكلم وتارة تقطع كلامها بالنواح والعويل وترتيل ابيات من الحزن العميق الممزوج بالشجن الجنوبي، يستمر البكاء في كل مكان من هذه المقبرة الصماء وكانها تطرق رأسها امام عويل الامهات ونواحهن الباكي.

للموتى علينا حق

تقول ام محمد: إنها تواظب على زيارة المقبرة كلما سمحت لها الظروف بذلك، ولولا ان الطريق بعيد جدا من بغداد الى النجف لسكنت المقبرة ولزارتها كل يوم، وتؤكد ام محمد التي فقدت اثنين من اولادها، واحد في الحرب العراقية الايرانية وآخر بعد السقوط بان للموتى حق على الاحياء فالحي يعيش حياة هانئة مع كل وسائل الراحة لكن الميت محروم من كل هذا، وحينما حاولت ان اقول لها بان الميت لا يشعر بالاشياء نهرتني ورفضت كلامي قائلة: الموتى يعيشون بيننا وهم واسطة بيننا وبين الله فهم يدعون لنا عند الله ان يحفظنا من كل سوء فكيف لا نسأل عليهم او نبخل بزيارتهم لهم كل الحق علينا لأنهم يشعرون بنا ونشعر بهم.

ابو عقيل يقول: لا أعرف لماذا ارتبط اول يوم العيد بزيارة القبور؟ ولا أجد تفسيرا لذلك الا ان الناس تشعر ان اول ايام العيد هو من حق احب الناس اليهم الذين غادروا الحياة لانهم يشعرون انهم ينتظرونهم ويستقبلونهم، واذا ما خالفوا العهد معهم (سيزعل) احبابهم عليهم، ربما هو اعتقاد سائد لدى الناس لكني أجد نفسي ومن دون اي تهيؤ اول الناس في اليوم الاول من العيد في المقبرة.

الحاج أبو محمد من أهالي مدينة السماوة قال: في كل عام نأتي أنا وزوجتي وزوجة ابني وأولادها وبناتها لزيارة قبر ولدي الذي أعدمه النظام السابق عام ١٩٨٢.

وأضاف: لا نستطيع إن نحتفل بالعيد إلا بعد أن (نعيّد) على ابني ويرى أولاده قبر والدهم الذي تركهم صغارا بعمر الورد.

وأوضح: (لا طعم للعيد من دون زيارة قبر ولدي (محمد) ليرتاح قلبي وترتاح أمه التي لا تنفك عن البكاء كلما مرت ذكرى يوم إعدامه).

حزن في مقبرة الأعظمية

تستعد أم رؤوف في منطقة الصالحية في بغداد لتجديد قبر ابنها المدفون في مقبرة الأعظمية حيث اتفقت مع عامل بناء على وضع لوحة دالة جديدة له، وتنظيف المكان حول القبر، على أن يكون جاهزًا قبل العيد. واستشهد رؤوف وهو شاب في العشرينيات إبان معركة مسلحة في شارع حيفا عام ٢٠٠٦. مقبرة الأعظمية في بغداد، وتعرف بمقبرة الأمام الأعظم، حيث إنها تحيط بمسجد الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، الذي دفن فيها عام ١٥٠هـ/٧٦٧م، تعد من أكبر المقابر، وتضم بين جنباتها الكثير من ضحايا العنف الطائفي، وتزدحم بالزائرين في أيام الأعياد.

والشعراء يبكون عند قبور أحبتهم

من خلال هذه الأبيات الشعرية للشاعر المرحوم كاظم اسماعيل الكاطع نجد خيط الحزن في مرثية ولده حيدر..الذي كان سببا في ان يذوب جسد شاعرنا الكبير ويغرقه بالمرض الذي أودى بحياته حزنا على فراق ولده الذي كان احب اخوته اليه وكان طالبا في المدرسة حين وافته المنية يقول له عند قبره:

بدأ العام الدراسي وبدت الهموم
وبيتي عالمدارس بابه صاير
نسيت...وداعتك جيت اشتري هدوم
إلك...ومحضّر اقلام ودفاتر
مو تسمع قيام...وليش ما تكوم؟
ومر اسمك ولا من كال...حاضر
الشمس طلعت علينا...مو وكت نوم
وهم عدكم صبح يا اهل المكابر
وهم عدكم...ضوه...وشباج...ونجوم
وهم ينطونكم واجب الباجر؟

عبر هذه الصور الشعرية يتجاهل الشاعر موت ولده حيدر، ويتعامل معه على انه حاضر معه يخاطبه، ولكنه في الوقت نفسه يدرك ذلك الحلم ويرجع ثانية إلى ارض الواقع للقبول بهذه الحقيقة، ولكنه يصر على إن ولده لم يبلغ لحضور المدرسة، فيحمل اللوازم المدرسية إلى المقبرة، ليتساءل عن حياة سكان المقابر وطبيعتها، لقد كانت هذه قراءة سريالية لتفاصيل الموت وتداعياته وعلاقته في الزمان والمكان في قصيدة الشاعر كاظم إسماعيل الكاطع.

رغبة في الفرح

لكن رغبة العراقي في الفرح على الرغم من تردي الواقع الخدمي والسياسي، تفوق اليأس، ليعبّر عن طريق فعاليات اجتماعية ودينية تحديه للصعاب، ورغبته في الحياة، وإحياء الكثير من التقاليد والعادات التي تميزت بها الحياة العراقية عبر مئات السنين، وأهم ما يميز العراقيين، لاسيما الأمهات، هو ذلك النزوع العميق إلى تذكر موتاهم، لاسيما قتلى الحروب والنزاعات الطائفية التي حصدت الكثير من أبناء الشعب العراقي، وهو نزوع مفرح في أيام العيد، لكنه يختلط بالدموع والذكرى لراحلين أعزاء على قلب الأمهات اللواتي ثكلن بالزوج أو الابن أو الجار أو الصديق.

يقول الكاتب جمعة الحلفي: يذهب الأحياء الى الموتى، في قبورهم، فلا يقولون لهم شيئاً. يقفون واجمين برهة، أو يجلسون مقرفصين جنب رخام الشاهدة، ينظرون بأسى ويتذكرون ملامحهم وضحكاتهم القديمة، يداعبون بملل، تلك الزهيرات البرية الرخوة الطالعة من تربة القبر، وكأنها العلامة الوحيدة على ذلك الذبول العظيم الذي اسمه الموت، هنا عند حافة الشاهدة، أو على رخامها الصقيل، تسقط دمعتان أو ثلاث ثم.. ثم يمضي الأحياء واجمين تاركين وراءهم الموتى وحيدين في وحشة القبر.

تُرى هل يدرك الموتى إنّا نزورهم بين حين وآخر نجلب لهم الزهور الصفراء، مطوية بعيدان الياس البري نشعل لهم الشموع ونقرأ على أرواحهم الفاتحة؟

هل يستمعون لتمتماتنا وهسيس زفراتنا الحزينة؟ هل تنير شموعنا الصغيرة ظلمة قبورهم الموحشة؟ بالأمس جاء العيد وفي الأعياد يشتاق الأحياء الى موتاهم، مثلما يشتاق الموتى الى احبتهم الأحياء، هكذا كان يقول لنا الأجداد فروح الميت الحائرة تشعر بالطمأنينة عندما يزورها من تحب، لكن من يزور تلك الأرواح الحائرة لأولئك الغرباء العراقيين، الذين يقطنون مقابر الضياع والتشرد الابدي؟

مَن يحمل الزهور لأولئك الذين عزت عليهم تربة الوطن حتى وهم أموات فضلّت أجسادهم الطريق الى مقابر النجف والشيخ معروف والاعظمية والشيخ عمر؟ مَن ينادم أولئك الذين تاهت أرواحهم الحائرة وغارت أجسادهم، المعطرة بالكافور، في غياهب تراب غريب؟

شموع وآيات قرآنية